مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسمَ بنفسه* قائلاً لأُباركنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نال الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاء اللهُ أن يزيدَ ورثةَ الموعدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمِه توسَّطَ بالقَسَم* حتى نحصلَ، بأمرين لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلفَ اللهُ فيهما، على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رُتبةِ ملكيصادق رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

القانون الكبير

إن الكتاب المقدس بالنسبة للمسيحيين هو كلمة الله المحيية، وهو محور حياتهم. فقد حاولوا دائماً ربطه بحياتهم اليومية، من خلال الوعظ في البدء ثم تناولوه في صلواتهم وقد اعتمدوا عليه أيضاً في كتاباتهم الروحية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك القانون الكبير للقديس إندراوس الكريتي.

حاول العديد من الآباء الذين فسّروا الكتاب المقدّس إعطاء معنى رمزياً لأحداث الكتاب المقدس، معتبرين ان كلمة الله تحاكي تفاصيل حياتهم، لذلك عندما تُتلى قراءةٌ من الكتاب المقدس على مسمع المؤمن يعتبر هذا الأخير ان الكلام موجَّه إليه شخصياً وإلى الجماعة التي يعيش معها، ويأتي الواعظ ليشرح هذه القراءة رابطاً إيّاها بتفاصيل حياة المؤمنين، لأنه يعتبر أن كلمة الله تحاكي كلّ مؤمن وكل جماعة بغض النظر عن المكان والزمان اللذين يحيا فيهما الإنسان. وقد حاول الآباء لهذه الغاية إظهار المعنى الرمزي لأحداث الكتاب المقدّس، في بعض الأحيان، معتبراً ان وراء كل حدث من أحداث الكتاب المقدس معنًى روحياً يرتقي بالإنسان إلى اللقاء مع الله. القديس غريغوريوس النيصصي مثلاً يرى في كتابه «حياة موسى» ان صعود موسى إلى الجبل يشكّل إرتقاءً روحياً لمعاينة الله. وقد عُرف هذا الأسلوب التفسيري بالأسلوب الرمزي.

لم يقتصر الأمر على التفسير بل تخطاه إلى العبادة وإلى الكتابات الروحية. فعند القديس يوحنا السلّمي مثلاً، التغرّب بالجسد وبالمشيئة هما الجناحان الذهبيّان المقصودان في قول النبي داود «ليت لي جناحان كالحمامة فأطير وأستريح» (مز ٥٤: ٦).

وعند القديس دوروثيوس الذي من غزة، الضمير هو الخصم الذي على الإنسان أن يتصالح معه قبل الوقوف للدينونة أمام الله، في قول الرب يسوع: «كُن مراضياً لخصمك سريعاً ما دُمتَ معه في الطريق لئلاَّ يُسلِّمَكَ الخَصمُ إلى القاضي ويُسلِّمك القاضي إلى الشرطي فتُلقى في

العدد ١٤/٢٠١١
الأحد ٣ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
(أحد القديس يوحنا السلّمي)
تذكار الأبوين البارَّين نيقيطا رئيس دير ميذكيون ويوسف ناظم التسابيح
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الأول

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجد له قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُه فيُزبِدُ ويصرفُ بأسنانه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمن إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتملُكم. هلمَّ به إليَّ* فأتَوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرعهُ الروحُ فسقط على الأرض يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّن علينا وأغثنا* فقال له يسوعُ إن استطعت أن تؤمنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِن ساعَتِه بدموعٍ وقال إنّي أؤمِنُ يا سيّد. فأغِث عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليه انتهر الروحَ النجسَ قائلاً له أيها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرُك أن اخرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلُ فيهِ* فصرخ وخبطهُ السجنِ» (متى٥: ٢٥).

كذلك ترد صور من الكتاب المقدس في نصوص الصلوات، فالعذراء مريم هي تابوت العهد والجرّة الذهبية والمائدة المقدّسة: «أيتها التابوت والمنارة والجرّة الذهبية والمائدة المقدسة الحاملة خبز الحياة، أيتها الأصل الذي أفرع الزهرة الإلهية توسّلي إليه مع القديس السابق، بما أنّه ابنكِ وإلهكِ، أن يترأف ويخلّص المعترفين انكِ والدةُ الإله». كما أن الصعود إلى الجبل على مثال موسى هو إرتقاء بالصيام إلى جبل الصلوات: «هلمَّ نرتقي بالصيام إلى جبل الصلوات، فنعاين الله نحن أيضاً بقلبٍ نقي مقتبلين داخلاً لوحَيْ الوصايا كمَثَل موسى، مشرقين الطلعات بمجد محبّته».

ومن أهم الأمثال في هذا الإطار، القانون الكبير للقديس إندراوس الكريتي، الذي نقرأه في فترة الصوم الكبير في الأسبوع الأول من الصوم خلال صلاة النوم الكبرى، مقسَّماً إلى أربعة أقسام، وفي الخميس من الأسبوع الخامس بكامله خلال صلاة النوم الكبرى أو في صلاة السَحَر. وفيه ينقل لنا القديس إندراوس أحداثاً من الكتاب المقدَّس، بعهديه القديم والجديد، معطياً إياها معنًى روحياً أو صورة روحية تكون للمؤمن مرشداً إلى التوبة وإلى التقرّب من الله: «يا نفس قد أوردتُ لكِ كون العالم المنطوق به من موسى ومنه كل كتاب قانوني يؤرّخ لكِ جميع العادلين والظالمين، فلم تشابهي الأوّلين منهم لكنك شابهتِ الثانين إذ أخطأتِ إلى الله»، «يا نفس قد أحضرتُ لكِ نموذجات الكتاب الجديد لنقودكِ إلى التخشّع، فماثلي إذاً الصدّيقين واجنحي عن الخطأة واستعطفي المسيح بالصلوات والأصوام والطهارة والوقار».

عند القديس إندراوس تماثل إمرأتا يعقوب العمل والعلم بالثاوريا (معاينة الله)، كما ان بكورية عيسو أخي يعقوب تماثل الجمال الأول: «يا نفس اعلمي ان المرأتين هما العمل والعلم بالثاوريا. أما ليًّا فهي العمل بما انها كثيرة الأولاد وأما راحيل فإنها العلم بما انها جزيلة التعب، لأن بغير أتعاب لا يتقدّم لا علم ولا عمل»، «يا نفس لقد ماثلتِ عيسو الممقوت فبعت بكورية الجمال الأول الضابط عقبك وسقطت من البركة الأبوية وعُرقلت يا شقية دفعتين بالعلم والعمل، فلذلك الآن توبي». والإنسان الخاطئ يشابه العذارى الجاهلات اللواتي بقين خارج العرس لأنهنَّ لم يكنّ متيقظات: «أنا عريان من الخدر ومجرّد من العرس ومن العشاء معاً ومصباحي قد طُفئ بما انه عادم الزيت، والحجرة قد أُغلقت دوني وأنا راقد، والعشاء قد أكل وأنا رُبطت يداي ورجلايَ وأُلقيت خارجاً».

هكذا يشكّل قانون القديس إندراوس دعوة إلى التوبة في هذا الزمن الصيامي الذي نسعى فيه إلى الرب يسوع الذي تألم من أجلنا ليُقيمنا معه: «أيها المسيح الكلمة أنت بذلت جسدك ودمك عن الكل لمّا صليت. فجسدك منحته لكي تعيد به جبلتي ودمك لتغسلني به وأسلمت روحك لكي تدخلني إلى والدك».

كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيده وأنهضه فقام* ولمَّا دخل بيتاً سأله تلاميذُه على انفرادٍ لماذا لم نستطع نحن أن نُخرجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أن يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يدريَ أحدٌ* فإنَّه كان يعلّم تلاميذهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونه وبعد أن يُقتل َ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

إنّ الصلاة هي خير كبير إذا ما تمَّت بفكر نقيّ، إذ إنّنا نشكر الله ليس فقط عندما يعطينا، بل عندما لا يعطينا كلّ ما نطلبه منه، طالما أنّه يفعل كلّ شيء لأجل منفعتنا. هكذا عندما لا نأخذ، فإنّنا في الحقيقة نأخذ، لأنّنا لم نأخذ ما لا يوافقنا. كما ترون، ثمّة حالات حيث يكون عدم الاستجابة إلى طلبنا أكثر إفادة؛ عندئذ يكون كلّ ما نعتبره فشلاً هو نجاحٌ.

إذاً، يجب ألاّ نحزن عندما يتأخّر الله عن الاستجابة إلى صلاتنا، وألاّ نفقد صبرنا. ألا يستطيع الكلّيّ

دموع التوبة

نسمع في صلواتنا، وبخاصة في فترة الصوم الكبير المقدّس، العبارات الدالّة إلى الحزن والدموع، والمُعبِّرة عن حالةٍ روحيّة من المفترض أن يعيشها المؤمن دائماً، ولكنَّ الصوم يأتي مذكّراً بما ينساه المؤمن في غمرة الإضطرابات التي يصادِفُها خلال حياته اليومية.

ما تقدَّم لا يعني أنّ حياة المسيحي المؤمن مليئة بالحزن دائماً، لكنّ ما نعنيه هو الحزن والدموع المنبثقَين من التوبة الحقيقية ومن حالة الخطيئة التي يمكنها أن تكون سيفاً ذا حدَّين، أي إمَّا أن تحرِّكنا نحو الشعور بعَظمةِ ما قُمنا به من شرور وتالياً نسير باتّجاه التوبة والاعتراف بدموع، وإمّا أن تعوِّدَنا على عدم الإحساس، وتالياً تصير الخطيئة كأي عمل آخر روتينيّ نقوم به، فلا تعود تُزعِجنا، فتنقطع حِبالُ التوبة وتجفُّ دموعها.

نرتّل في عشيّة أحد مرفع الجبن، أي عشيّة أحد طرد آدم من الفردوس، بادئ ما نرتّل، ترنيمة تُخبرنا كيف يجب أن يكون صومُنا: «هلُمَّ نُبادِر إلى تذليل البشرة بالإمساك إذ نحن مُقبلون نحو مشهدِ الصيامِ الإلهيِّ غيرِ المُعاب، ونسأل الربَّ مخلِّصنا بالدموع والصلوات مُعرِضينَ بالكليّة عن الشرور وهاتفين: ها قد أخطأنا إليك أيها المسيح الملك، فخلِّصنا كما خلّصت أهل نينوى قديماً، واجعلنا مساهِمينَ ملكوتك السماوي أيّها المتحنّن». كما نقرأ في الأسبوع الأوّل من الصوم الأربعيني المقدّس، إبتداءً من عشيّة الإثنين حتى عشيّة الخميس (ونعيده كاملاً عشيّة الخميس الخامس من الصوم)، القانون المعروف باسم «قانون التوبة» لمؤلّفه القديس أندراوس الكريتي، وليس مِنَ المصادفة أن يكون المقطع الأول منه يتكلّم على النوح والنّدبِ بسبب الخطيئة: «كيف أنوحُ الآنَ وأندبُ سَقطتي، وأيُّما ابتداء أضعه لخلاصي أنا العائش بالبذخ، فيا ايها الرؤوف خلّصني بأحكامِ تعلم بها». نلاحظ أنّ تذكر الخطايا والبكاء عليها بتوبة من العناصر الأساسية في الصوم، على غرار ما فعله أهل نينوى المذكورين سالِفاً والذين لَبِسوا المُسوحَ وتابوا ملتمسين رحمة الرب بعد أن كان يونان النبيّ أنبأهم بالخراب الآتي عليهم بسبب خطاياهم، فظهر تحنّنُ الإله بعدما أظهروا هم توبةً صادقةً بالمُسوحِ والدموع.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «وضع الله الحزنَ داخلنا لكن ليس لكي نستعمله من دون هدف أو بشكل مؤذٍ، في وقتٍ غير مناسب أو في حالات مضادّة لطبيعتنا، مزعزعين بذلك صحّة النفس والجسد، بل لكي نجني منه قدر الإمكان ربحاً روحيّاً أكبر». يتكلّم القديس هنا على ذلك الحزن الذي قال عنه ربّنا إنّه سيؤول إلى فرح (يو ١٦: ٢٠). حزنُ التوبة ودموعها يوصِلنا إلى فرح لا يزول، إلى فرح الفردوس. يمكننا أن نستعمل هذا الحزن وهذه الدموع في سبيل خلاص الآخر مثلما نستعملها في خلاصِنا، في هذا الصدّد يقول الذهبي الفم أيضاً: «إذا اتّهمنا أحدٌ وكان على حقّ، يجب أن نبكي ونتوب، وإن اتّهمونا ظُلماً فيجب أن نبكي من أجلهم ونغبّط أنفسنا مفكّرين بكلام الربّ: طوبى لكم إذا عيّروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كلّ كلمةٍ شريرة من أجلي كاذبين. لا نشعرنّ حينئذٍ بالحزن والكآبة، بل بالفرح والسرور، لأنّ مكافأتنا

الصلاح أن يعطينا، حتى الصلاح أن يعطينا، حتى قبل أن نطلب؟ طبعاً يستطيع، لكنّه ينتظر منا حجّة ما لكي يساعدنا حقًّا. لذلك، فلنعطه سبباً، بالصلاة، ولننتظر بإيمان ورجاء وثقة بحكمته الكلّيّة ورحمته. هل أعطانا كلّ ما طلبنا؟ فلنشكره. لم يعطنا؟ فلنشكره أيضاً لأنّنا لا نعرف ما هو النافع لنا كما يعرف هو.

لنضع نُصب أعيننا أيضاً، أنّ الله قلّما يرفض، لكنّه يؤجّل فقط استجابته لطلبنا. لماذا يؤجّل؟ لأنه يستعمل إصرارنا على الطلب كوسيلة، يريد بها أن يستميلنا ويجعلنا بقربه. فضلاً عن ذلك، عندما يطلب الولد إلى أبيه الحنون شيئاً، يرفض ذلك الأب أحياناً كثيرة أن يعطيه إياه ليس لأنّه لا يريد، لكنّه بهذه الطريقة يُبقي ولده إلى جانبه.

باختصار، إنّ فعاليّة صلاتنا تعتمد على: أولاً، أنّنا مستحقون أن نأخذ ما نطلب. ثانياً: إن كنّا نصلّي وفقاً لمشيئة الله. ثالثاً: إن كنّا نصلّي بلا انقطاع. رابعاً: إن كنّا نلجأ إلى الله في كلّ أمورنا وخامساً: إن كنا نطلب الأمور المفيدة لنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ستكون كبيرة في السموات».

نطلب في صلاة النوم الكبرى أن يعطينا الله الدموع: «دموعاً أعطِني يا الله كما أعطيتَ قديماً المرأة الخاطئة... حتى أسمع أنا أيضاً صوتَك الحسن: إيمانُكَ خلّصكَ، إمضِ بسلام». إذاً، دموع التوبة توصِلنا إلى الخلاص. بشريًّا، إذا رأينا أحداً يبكي نسخر منه، طفلاً كان أو رجلاً، معيّرينه بأنّ القويّ لا يبكي، لكنّنا في المسيحية نغبّط مَن لديه دموع التوبة، لأنّ هذه الدموع تُذيب الشيطان وقوّته، تطرد الخطيئة بعيداً وتوسع مكاناً نقيًّا للرب، مغسولاً بمياه نقيّة هي الدموع.

في النهاية، لا نخجلنّ من ذرف الدموع على خطايانا، فالشيطان يريدنا أن نخجل ونتكبّر لئلاّ نصل إلى التوبة والتواضع والانسحاق، وبهذا نسقط ويكون سقوطنا هائلاً. أمّا المؤمن الحقيقيّ فيرحض نفسه «بحميم التوبة» و«حميم إعادة الولادة» لأنّ الدموع تنقّينا وتعيد ولادتنا بعد أن نكون متنا بالخطيئة، ونظهر أقوياء غالبين الجحيم وسيّدها، ووارثين الملكوت مع المسيح القائم من بين الأموات. حياةُ المسيحي، كما قُلنا في البداية، ليست أحزاناً، لأنّ أساسها الفرح القيامي. فمثلما أتت القيامة بعد الآلام، هكذا سيأتي الفرح بعد الدموع، ويكون حزننا بهيًّا ومشرقاً لأنّ المسيح سيمسح دموعنا، على حسب ما نرنم في خدمة البراكليسي الصغير: «أيتها العذراء لا ترفضي مجاري دموعنا يا من ولدتِ المسيح الذي انتزع من كلّ وجهٍ كلّ دمعة».

من أخبار الآباء

قال الأب سيسوي: عندما كنت في الاسقيط مع الأب مكاريوس، خرجنا سبعة رجال كي نجمع القمح معه، وكانت وراءنا أرملة تجمع العيدان وهي تبكي بدون توقف. فسأل الأب صاحب الحقل لماذا تبكي هذه العجوز؟ أجاب: انها تبكي لأن زوجها كان معه وديعة من إنسان، لكنه مات على حين غرة دون أن يقول أين وضعها. أمّا صاحب الوديعة فينوي أن يأخذ المرأة وأولادها عبيداً له. قال الأب: قل لها أن تأتي إلينا حيث سنستريح من الحرّ. فلما جاءت المرأة، سألها الأب: لماذا تبكين هكذا يا امرأة؟ قالت: مات زوجي دون أن يطلعني على مكان الوديعة. فقال لها الأب: هلمّي أريني أين يدفن زوجك. وأخذ الأب الاخوة معه وخرجوا بصحبة المرأة متوجهين نحو القبر. ولما بلغوا المكان، قال لها الشيخ: عودي إلى بيتك. ثم صلّى ونادى الميت قائلاً: أيها الميت، أين تركت الوديعة؟ أجابه الميت: إنها في بيتي تحت السرير. قال له الأب: أرقد من جديد حتى يوم القيامة. فلما رأى الاخوة ما حصل سقطوا عند قدميه من شدة الخوف، فقال لهم: ما كان هذا من أجلي، لأني لست بشيء، إنما من أجل الأرملة وأولادها اليتامى. هذا هو المهم إن الله يريد النفس بدون خطيئة، ومهما تطلب منه تَنَله. ولما عاد إلى البيت، أعلم المرأة بمكان الوديعة، فحملتها وسلّمتها إلى صاحبها، فأطلق لها أولادها. والذين سمعوا هذا، مجدوا الله.

الأب مكاريوس المصري

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb